الهوية القومية الأميركية تحت الحصار؟

صِدامُ الثقافات داخل أميركا

. محمد سعدي .

إلى أين وصل هنتنغتون بعد نظريّته عن صدام الحضارات، و«شيْطنة» الإسلام؟ في هذه الدراسة النيِّرة يقدِّم د. محمد سعدي، أستاذ العلوم السياسية في جامعة محمد الأوّل (وجدة، المغرب)، عرضًا مفصّلاً ونقداً دقيقًا لأبرز أفكار كتاب هنتنغتون الجديد: مَنْ نحن؟

الآداب

شكّلتْ أحداثُ ١١ سبتمبر الأليمةُ صدمةً قويةً للوعي الأميركي، وكانت نقطةَ تحوّل جذريةً خلقَتْ إحساسًا وطنيًا قويًا تَرافَقَ مع تعبئة وطنية مكثفة حول ما يسمَّى بـ «القيم الأميركية» و«الدفاع عن نمط الحياة الأميركية.» ولكنْ، في الوقت نفسه، تصاعد نوعٌ من القلق الذاتي والتخوف من المستقبل لدى المواطن الأميركي. وكلُّ هذا حَرَّكَ مجموعةَ أسئلة لدى الأميركيين حول الهوية الأميركية وتحولاتها: مَنْ نحن؟ ما هي قيمنا الأساسية؟ ما الذي يميِّزنا عن الآخرين؟ وما هي التحدِّيات المطروحة أمام هذه الهوية؟

إنّ محاولة الإجابة على هذه الأسئلة تشكّل المنطلقَ الموجِّه للكتاب الجديد لصامويل هنتنغتون[١]: **من نحن؟ تحدّيات الهوية الوطنية الأميركية**، الذي صدر في ماي ٢٠٠٤ باللغتين الإنجليزية[٢] والإسبانية في آن واحد، ثم صدرت الترجمةُ الفرنسيةُ في السنة نفسها مع تغيير في عنوان الكتاب.

يَنْهج هنتنغتون الخطةَ التي سَبَقَ أنْ نهجها بالنسبة إلى كتابه الأسبق: **صِدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي الجديد**. فهو يقوم بنشر مقال حول موضوع مثير، يتْبَعه بمؤلَّفٍ في الموضوع نفسه، يطوِّر فيه أطروحاتِه ويدعِّمها بمزيد من الأفكار والمعطيات. فعلى غرار كتابه الأول[٣] الذي نَشَرَ فكرتَه الأولى على شكل مقال[٤] في المجلة الأميركية **شؤون خارجية**، فإنّ كتابه الجديد يأتي أيضًا بعد صدور مقالٍ له بعنوان «التحدّي الإسبانيكي.»[٥] وبعد تحليله في أطروحته الأولى حول «صِدام الحضارات» للانقسامات الثقافية الكبرى في العالم وتأثيرِها في السياسة العالمية، عاد في كتابه الجديد ليكرِّس منطقَ هذه الأطروحة، لكنْ ـ هذه المرة ـ عبر تطبيقها داخل الولايات المتحدة من خلال تشخيص خطوط التصدُّعات الثقافية وتحديد التحدِّيات والتهديدات التي تواجهها الهويةُ الوطنيةُ الأميركية.

المفارقة الكبرى هي أنه في الوقت الذي ترتفع فيه العديدُ من الأصوات في مختلف مناطق العالم للتنديد باكتساح القيم والثقافة الأميركية لكلّ شعوب العالم، بما يهدِّد تماسُكَ منظوماتها الثقافية، يأتي هنتنغتون ليُبْدي تخوُّفَه من مآل الهوية الوطنية **الأميركية** بفعل ارتفاع وتيرة الهجرة الأميركية اللاتينية، وخصوصًا المكسيكية، إلى الولايات المتحدة!

---

١ ـ البروفيسور صامويل فيلبس هنتنغتون من مواليد ١٩٢٧، أحد كبار علماء السياسة ومن روّاد العلوم السياسية المقارنة. كان رئيسًا للجمعية الأميركية للعلوم السياسية، وله مكانة مرموقة في الدراسات الإستراتيجية إذ كان رئيسًا لأكاديمية هارفارد للدراسات الدولية والإقليمية. وهو مدير معهد جون أولين للدراسات الإستراتيجية بجامعة هارفارد.

٢ ـ Samuel P. Huntington, **Who Are We? The Challenges to America's National Identity** (New York, London: Simon and Schuster), 2004.

٣ ـ Samuel P. Huntington, **The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order** (New York: Simon and Schuster), 1996.

٤ ـ Samuel P. Huntington, "The Clash of Civilizations?," **Foreign Affairs**, V.72, Summer 1993.

٥ ـ Samuel P. Huntington, "The Hispanic Challenge," **Foreign Policy**, May/June 2004.

. محمد سعدي .

حرّكتْ أحداثُ ١١ سبتمبر مجموعةً من الأسئلة لدى الأميركيين حول الهوية الأميركية وتحوّلاتها

مقوّمات الهوية القومية الأميركية

ينطلق هنتنغتون من مفهوم جوهراني منغلق في فهمه للهوية. فهو يَعْتبر الثقافات كياناتٍ شموليةً ذاتَ خصائصَ ثابتةٍ متجذّرةٍ في التاريخ والتراث والقيم، وهي تَحْمل تمايزاتٍ واضحةً عن باقي الثقافات الأخرى، فتشكّل قاعدةَ الاختلاف الأساسية بين البشر في النظر إلى الأشياء والحُكم عليها.(١) وتُقابلَ الحضاراتِ الأخرى تتميّز الحضارةُ الغربيةُ بمجموعة مميّزات جوهرية: الإرث التقليدي، المسيحية الغربية، اللغات الأوروبية، العلمانية، الفردانية، سيادة القانون، التعددية الاجتماعية، المؤسسات التمثيلية. وهذه مكوّنات لصيقة وأصيلة في الغرب؛ وحتّى وإنْ وُجدتْ في حضارات أخرى، فإنّ تركيبة تلك المكوّنات وامتزاجَها يَبقيان خاصيّةً فريدةً للغرب. ولهذا يؤكّد هنتنغتون أنّ الغرب فريد، لا كونيّ.(٢)

بعد أن أرسى هنتنغتون مقوّمات الهوية الغربية في كتابه **صدام الحضارات**، حاول عبر كتابه **مَنْ نحن؟** تشريحَ الهوية الوطنية الأميركية وتحليلَ تحولاتها والتحدّيات المطروحة أمامها. وهكذا يرى أنّ الولايات المتحدة هي نتاجُ للثقافة الأنغلوبروتستانية المتميزة التي تشكّل أساسَ الهوية الأميركية. فأميركا نشأتْ بروتستانتيةً وأنغلوساكسونيةً، والذين أسّسوا أميركا هم المعمّرون الذين قَدِموا من أوروبا حاملين معهم الثقافةَ الأنغلوبروتستانتية. وقد تكوّنت الهويةُ الأميركية ابتداءً من القرن الثامن عشر، ثم تبلورتْ في القرن التاسع عشر، وترسّختْ بعد الحرب الأهلية الانفصالية بين الشمال والجنوب. ومنذ ستينيات القرن الماضي بدأتْ تَبْرز هوياتٌ فوق ـ وطنية خصوصًا لدى النخب الفكرية والسياسية والاقتصادية المتفاعلة مع العولمة، وهوياتٌ تحت ـ وطنية لدى السود واللاتينيين والآسيويين. وهذه التشكيلات الجديدة للهوية تهدّد الهويةَ الوطنيةَ الأميركية بحسب المؤلّف.

ويَفْخر المؤلّف بالقيم الأصيلة للآباء المؤسّسين، ويَعْتبر أنّ المكوّنات الأساسية للثقافة الأميركية تتمثل في «اللغة الإنجليزية، المسيحية، الالتزام الديني، مبادئ سيادة القانون، مسؤولية الحكّام واحترام حقوق الإنسان كما هي منصوص عليها في القانون الإنجليزي، وكذلك القيم النابعة من البروتستانتية: الفردانية، أخلاقية العمل، والاعتقاد بأنّ للإنسان القدرةَ والواجبَ لإنشاء الجنّة في الأرض.»(٣)

والدين، تحديدًا، يشكّل قوةً مركزيةً للهوية الأميركية في رأي هنتنغتون؛ إذ إنّ له دورًا مهمّاً في مكافحة التفسّخ الأخلاقي، وأصبح عنصرًا أساسيّاً في السياسة الأميركية. ويرى أنّ المجتمع الأميركي هو أكثرُ المجتمعات الغربية تديُّنًا، وأنّ أميركا هي البلد الوحيد الذي يوجد فيه التزام دينيّ قوي دون أن يكون بلدًا فقيرًا، وأنّها البلد الوحيد الذي يمكن أن يَجْمع بين روح الدين وروح الحرية. ويعتبر أنّ العقيدة السياسية الأميركية لا تكفي وحدها،

---

١ ـ صامويل هنتنغتون، «إنْ لم تكن الحضارة فماذا تكون؟»، **شؤون الأوسط**، مركز الدراسات الإستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت، ١٩٩٥، ص ٨٧.

٢ ـ Samuel P. Huntington, "The West Unique, not Universal," **Foreign Affairs**, V. 75, November/December 1996.

وانظر أيضًا: محمد سعدي، **أطروحات لفهم العالم الجديد، نهاية التاريخ، صدام الحضارات، الفوضى العالمية الجديدة** (الرباط: دار السلام، ٢٠٠١)، ص ٥٣ ـ ٥٧.

٣ ـ Samuel P. Huntington, **Qui sommes nous** ?, Odile Jacob, 2004, p. 10.

(وهذا الكتاب هو ترجمة **Who Are We?**، وعليه اعتمدنا هنا).

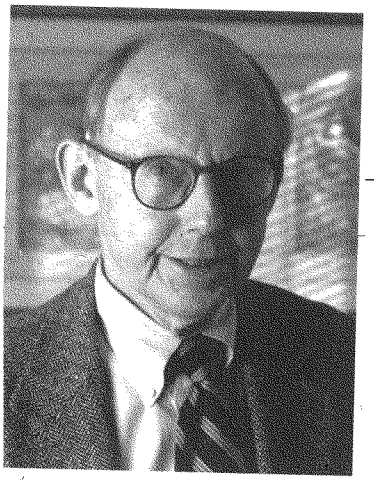

يَعتبر هنتنغتون أنّ بن لادن قدّم خدمةً لأميركا لأنّه ملأ الفراغ الذي تركه انهيارُ المعسكر الشيوعي ورسّخ الهويةَ المسيحيةَ للأمة الأميركية

بل لا بدّ من استحضار الإرث الديني البروتستانتي لترصيص تماسك الأمة الأميركية ذات الثقافة الجماعية الأنغلوبروتستانتية.[١]

أما وجود الآخر/ العدوّ فضروري لأنّه يساهم في تحقيق التماسك الهوياتي؛[٢] فالأميركيون أنشأوا دائمًا هويتَهم العقيدية بتضادٍ مع آخرَ غيرِ مرغوبٍ فيه: «الهنود الحمر،» المستعمرين الفرنسيين، المستعمرين البريطانيين، المعسكر الشيوعي، «الإسلام المسلّح...» ودائما كان أعداءُ أميركا يحدَّدون بوصفهم أعداءَ الحرية.[٣] وكما كان الشأن في أطروحته حول «صِدام الحضارات» فإنّه بقي مصرّاً على أنْ يرشّح ما يسمّيه بـ «الإسلام المسلّح» ليشكل العدوَّ الخارجي **الرئيسي** الذي سيمكّن الأميركيين من الالتفاف الوطني حول هويتهم. بل إنّه يعتبر أنّ أسامة ابن لادن عَبْر قيامه بتفجيرات ١١ سبتمبر قد قَدَّم خدمةً غيرَ مباشرة للولايات المتحدة؛ فقد مَلأَ الفراغَ الذي تركه انهيارُ المعسكر الشيوعي ورَسَّخ الهويةَ المسيحيةَ للأمة الأميركية.[٤]

ويشير هنتنغتون إلى وجود علاقة وطيدة بين الموقع الإستراتيجي للولايات المتحدة وبناء هويتها القومية: «يجب أن نَعْرف مَنْ نحن قبل أن يكون بإمكاننا معرفةُ مصالحنا. وبدون منح معنًى واضحٍ وثابتٍ للهوية القومية الأميركية، سيصبح الأميركيون غيرَ قادرين على تحديد مصالحهم القومية.»[٥] والولايات المتحدة هي أشبهُ في مصيرها بمصير الاتحاد السوفياتي، وذلك لكونهما يتشابهان في أنّهما لا يشكّلان دولة/ أمّةً بالمعنى التقليدي للكلمة؛ وعليه، فإذا «سادت التعدديةُ الثقافيةُ، وتفكّكَ التوافقُ حول الديموقراطية الليبرالية، فإنّ الولايات المتحدة ستلتحق بالاتحاد السوفياتي إلى ركام رماد التاريخ.»[٦] أما اختلاف الأميركيين حول السياسة الخارجية التي يجب اتّباعُها فمردُّه إلى عدم توافقهم حول هويتهم الداخلية: فإذا كانت الهويةُ الأميركيةُ تتحدّد بمجموعة من المبادئ الكونية القائمة على الحرية والديموقراطية، فإنّ الدفاع عن هذه المبادئ في الدول **الأخرى** يجب أن يشكّل الهدفَ الأولَ للسياسة الخارجية الأميركية.

تفكك الهوية الأميركية وتآكلها

يبيّن هنتنغتون، معتمدًا على الأرقام والإحصائيات والمعطيات الجغرافية، أنّ الواقع الأميركي يَشْهد صعودًا مثيرًا للهويات ما تحت ـ الوطنية، الأمرُ الذي يقوِّض أسسَ الهوية الأميركية لصالح قدوم مجتمع متعدِّدِ الثقافات والإثنيات. فهناك تراجعٌ للقواسم الثقافية المشتركة، وفتورٌ للشعور الوطني بالوحدة الداخلية لدى الأميركيين. والسؤال الحاسم بالنسبة إلى مصير الهوية الأميركية هو: هل يريد الأميركيون أن يشكّلوا أمةً ذاتَ ثقافة وقيم مشتركة، أمْ كيانًا مركّبًا من خليط من الأعراق والثقافات تدافعُ داخلَه كلُّ جماعة عن مصالحها وقيمها؟

١ ـ Ibid, p. 219.

٢ ـ Samuel P. Huntington, "The Erosion of American National Interests," **Foreign Affairs**, V. 76, September/October 1997.

٣ ـ Ibid, p. 30.

٤ ـ Samuel P. Huntington, **Qui sommes nous?**, op.cit, p. 358.

٥ ـ Samuel P. Huntington, "The Erosion...," op. cit, p. 28 - 29.

٦ ـ Ibid, p. 35.

يصف هنتنغتون النخبة الأميركية بـ «الكوسموقراط» لتخلّيهم عن هويّاتهم القومية لصالح هويات ما فوق ـ وطنية

إنّ هنتنغتون لا يُخفي عداءه للتعددية الثقافية[1] multiculturalism التي هي في رأيه بمثابة خطرٍ كبيرٍ على الهوية الثقافية والسياسية للولايات المتحدة. وإنّ تخوفه على مصير الهوية القومية الأميركية يجعله يعارض بشدةٍ سياسةَ الكوطا والتمييز الإيجابي positive discrimination أو الفعل الإثباتي affirmative action لصالح السود ثم الإسبانيكيين[2] والتي تمكّنهم من الاستفادة من مكاسب ومعاملات تمييزية خاصة على مستوى التعليم والتوظيف وغير ذلك. ذلك أنّ مثل تلك السياسة، عوضَ أن تؤدّي إلى القضاء على التمييز العنصري والإدماج الاجتماعي للأقليات في المجتمع الأميركي، أدّت بشكل معاكس (في رأي المؤلّف) إلى منح المشروعية لمفاهيم الإثنية والعِرْق والعنصرية التي كان قد تم إلغاؤها بفعل قوانين الحريات المدنية. ولهذا فإنّ سياسة التمييز الإيجابي أضحتْ شكلاً جديداً من العنصرية؛ ذلك لأنّ الرأي العامّ الأميركي في أغلبيته يَعْتبر أنّ الأفراد ينبغي تقييمُهم على أساس **كفاءاتهم**.[3]

ويهاجم هنتنغتون المثقفين الليبراليين والنخبَ الماليةَ والاقتصادية والإعلامية، ويصفهم بالكوسموقراط، لتخاذلهم وتخلّيهم عن هويتهم القومية لصالح تبنّي هويات ما فوق ـ وطنية، مسهمين بذلك في تفكيك وحدة الهوية الوطنية الأميركية. إنّ هؤلاء «التفكيكيين» يدمِّرون، بحسب المؤلِّف، ما تمّ بناؤه ويتنكّرون لقيمهم من أجل ثقافة كوسموبوليتية، ولا رغبة لهم في الدفاع عن ثقافةِ أجدادهم وآبائهم الذين أسّسوا الأمّةَ الأميركية. وبفعل تدفّقات العولمة فقدت النخبةُ السياسيةُ والفكرية والاقتصادية الأميركية إحساسَها بالوطنية، وهذا بعكس أغلبية المواطنين الأميركيين الذين لا زالوا يَحْملون نزعةً قوميةً وطنيةً ويؤمنون بالهوية الأميركية الموحّدة.

الغزو المكسيكي لأميركا!

لقد سبق لهنتنغتون أنْ أكّد في أطروحته حول «صِدام الحضارات» أنّ التضخّم الديموغرافي لدى الحضارات غير الغربية سيؤدّي إلى ضغوط على الغرب الضعيف سكانيّاً، وذلك بالخصوص عبر ظاهرة الهجرة التي عَرفتْ تزايدًا كبيرًا عند بداية القرن الحادي والعشرين. وأصبح الغربيون يَخْشون أكثرَ فأكثرَ من أن يتم «اكتساحُهم لا من طرف الجيوش والدبّابات، بل من طرف المهاجرين الذين لديهم لغاتٌ وآلهةٌ وثقافاتٌ خاصةٌ بهم.»[4] وهذا ما يهدّد نمطَ الحياة الغربية والهوية الوطنية للمجتمعات الغربية. ولذلك يدعو هنتنغتون إلى الحدّ من تدفُّقات الهجرة وإلى الإدماج الثقافي للمهاجرين غير الغربيين في ثقافات المجتمعات الغربية.

أما في ما يخصّ أميركا تحديدًا فإنّ المؤلِّف يدقّ ناقوسَ الخطر حين يتحدَّث عن صعود موجة هجرة لاتينية، وخصوصًا مكسيكية، تختلف تمامًا عن كلّ الهجرات التي عرفتْها الولاياتُ المتحدة حتى الحرب العالمية الأولى. فالمهاجرون المكسيكيون لا يَرْغبون في الاندماج تمامًا في الثقافة الأميركية، ولا يشاركون الأميركيين في التقاليد المدنية

---

١ ـ للاطّلاع على تيار التعددية الثقافية وعلاقته بالهوية الأميركية، راجع الكتاب المهمّ:
Denis Lacorne, **La crise de l'identité américaine, du melting-pot au multiculturalisme**, Gallimard, 2003.

٢ ـ الإسبانيكي Hispanico تعني في الولايات المتحدة: الأميركي ذا الأصل اللاتيني.

٣ ـ Samuel Huntington, (entretien), **Le nouvel observateur**, 27 janvier 2005.

٤ ـ Samuel Huntington, **Le choc des civilisations**, Odile Jacob, 1997, p. 337 - 339.

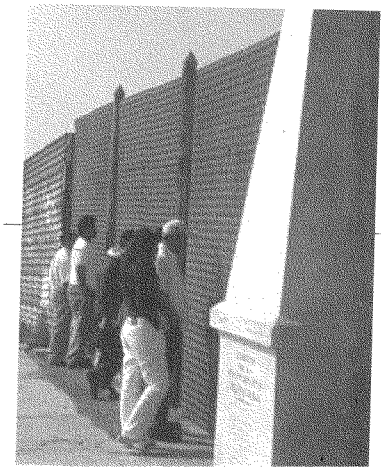

يدقّ هنتنغتون ناقوس الخطر حين يتحدّث عن صعود موجة هجرة لاتينية، وخصوصًا مكسيكية، إلى الولايات المتحدة

والدينية والعادات التي تؤسِّس للثقافة الأميركية، ويعتزّون بالثقافة اللاتينية الإسبانيكية، «ويشجّعون أولادَهم على التحدث بالإسبانية في الحياة اليومية.»[1] وإذا ما استمرت الهجرةُ المكثّفةُ للآتينيين دون أن يوازيها اندماجٌ مكثّفٌ، فإنّها ستهدِّد الهويةَ القوميةَ الأميركية، بل يُمْكن أن تقسِّم أميركا إلى دولة ذات لغتين وثقافتين.[2]

إنّ التخوف من أَسْبَنة المجتمع الأميركي يعود إلى أنّ الأميركيين ذوي الأصل المكسيكي ما زالوا يعتبرون أنفسَهم مكسيكيين، وهم يتميزون باعتزازهم بدينهم الكاثوليكي وبلغتهم الإسبانية وبخصوبتهم القوية مقارنةً مع الأميركيين الأصليين البيض والسود. وهذا من شأنه أن يؤدّي إلى صِدام حضاري داخل الولايات المتحدة؛ فالمكسيك ذاتُ إرث ثقافي إسباني وهندي يَصْعب أن يتطابق مع الإرث البروتستانتي للولايات المتحدة.

وبالإضافة إلى عدم الاندماج على مستوى التربية واللغة والتأهيل المهني والمشاركة في الحياة السياسية، فإنّ ما يجعل الهجرةَ المكسيكيةَ خطرًا - في رأي هنتنغتون - على الهوية الوطنية الأميركية هو تميُّزها بمجموعة من الخصائص:

- القُرْب: فوجود بلد فقير كالمكسيك على تخوم الولايات المتحدة يساهم في تزايد تدفّق المهاجرين الفقراء. كما أنّ الحدود المكسيكية - الأميركية يتجاوز طولُها ثلاثة آلاف كيلومتر، وهي أطولُ حدود بين دولة غنية ودولة فقيرة.

- الكثافة: فالهجرة المكسيكية هي الوحيدة التي يتزايد حجمُها منذ العام ١٩٦٥، والمكسيكيون يشكّلون ٢٧,٦٪ من مجموع المقيمين الأميركيين الذين وُلِدوا خارج أميركا، و١٢٪ من مجموع ساكنة أميركا. ومن المنتظر في عام ٢٠٢٥ أن يشكل الإسبانيكيون ٢٥٪ من سكّان الولايات المتحدة.

- السرّية: إذ إنّ المكسيكيين يشكّلون أكبرَ عدد من المهاجرين السريين؛ فـ٦٩٪ من المقيمين غير الشرعيين بالولايات المتحدة مكسيكيون.

- التمركز الجهوي: فالمهاجرون المكسيكيون يتمركزون جغرافيّاً، وينتشرون بكثافة في الولايات الجنوبية الغربية كأريزونا ونيومكسيكو وكاليفورنيا...

- الاستمرارية: ذلك أنّ هناك استمرارًا متواصلاً للهجرة من المكسيك إلى الولايات المتحدة، الأمرُ الذي يَحُول دون الاندماج التدريجي للإسبانيكيين.

- الحضور التاريخي: إذ إنّ هناك مطالبَ ترابيةً أو انفصاليةً لدى المقيمين المكسيكيين في مجموعة من المناطق، كنيومكسيكو وأريزونا وكاليفورنيا ونيڤادا ويوتاه، والتي انتُزِعتْ من المكسيك سابقًا.

ويُبْدي هنتنغتون انزعاجَه من أن يرتقي الأميركيون ذوو الأصل المكسيكي بشكل مكثّف إلى الطبقات الوسطى من دون أن ينسلخوا عن حياتهم الجماعية وقيمهم ليندمجوا في القيم الأميركية، لأنّ ذلك سيؤدّي إلى تكوُّن كتلة مستقلة لغويّاً وثقافيّاً سيزداد وزنُها السياسي والاقتصادي داخل الولايات المتحدة. ولكنْ رغم ذلك فإنّ الأميركيين المكسيكيين لن يستطيعوا تحقيقَ الحلم الأميركي، لأنّه مترسّخ **فقط** في نسيج المجتمع الأنغلوساكسوني: «إذا كان الأميركيون ذوو الأصل المكسيكي يرغبون في المشاركة في هذا الحلم وفي هذا المجتمع فعليهم أن يَحْلموا بالإنجليزية [!]»[3]

١ - Samuel Huntington, **Qui sommes nous?**, op.cit, p. 229.

٢ - Ibid, p. 251.

٣ - Ibid, p. 217.

. محمد سعدي .

يشبِّه هنتنغتون تدفُّقَ المهاجرين المكسيكيين بمحاولة مليون جندي مكسيكي كلَّ سنة اجتياحَ الولايات المتحدة!

ويَمْنح هنتنغتون رؤيةً كارثيةً تهويليةً لمصْيَر الهوية الوطنية الأميركية. فهو يرى أنّ استمرار عدم اندماج الأميركيين المكسيكيين يُمْكن أن يؤدّي إلى «تدعيم المناطق ذات الأغلبية المكسيكية وتحويلها إلى كتلة متميزة ثقافياً ولغوياً ومستقلة اقتصادياً داخل الولايات المتحدة.»[١] ويشبِّه تدفُّقَ المهاجرين المكسيكيين بمحاولة مليون جندي مكسيكي كلَّ سنة اجتياحَ الولايات المتحدة! بل وَصَلَتْ مخيلتُه إلى درجة تصوّر أن يتم توحيدُ المناطق ذات الكثافة المكسيكية مع بلدهم الأصلي المكسيك.[٢] ويبلغ قمةَ الهذيان الفكري والرُّهاب من الهجرة حين يؤكّد أنّ «الهجرة المكسيكية تقود حالياً معركةَ استرداد ديموغرافي Reconquista demografica[٣] للأراضي التي كان الأميركيون قد انتزعوها بالقوة من المكسيك في سنوات ١٨٣٠ ـ ١٨٤٠!»[٤] وكردّ فعل قد يكون هناك صعودٌ لحركة معادية للإسبانيكيين وللسود وللمهاجرين، تتشكل أساسًا من البيض المنتمين إلى الطبقات العمّالية والطبقات الوسطى المتذمِّرة من انحلال ثقافتها ورفض لغتها ومن البطالةِ وقلّةِ فرص العمل التي يستحوذ عليها المهاجرون.

ويشبِّه هنتنغتون التحوُّلاتِ الديموغرافية في المجتمع الأميركي لصالح الاسبانيكيين بالنموّ الديموغرافي للمسلمين في البوسنة والهرسك، وهو نموٌّ دفع الصربَ إلى القيام بردّ فعل عبر التصفية الإثنية. فكأنّ هنتنغتون بذلك يدعو البيضَ البروتستانت إلى ثورة لقمع كلّ الهويات التي لا تودّ الاندماجَ في الهوية الوطنية الأميركية!

العنصري المقنَّع

يُتقن هنتنغتون فنَّ الإثارة على المستوى النظري. فهل تستحقّ أفكارُه كلَّ هذا الاهتمام، حتى تصبح كتبه ومقالاته بمجرد صدورها حدثًا فكريّاً بامتياز؟

لقد أثارت أطروحتُه حول مصير الهوية الوطنية الأميركية جدالاتٍ وانتقاداتٍ حادةً في الأوساط الجامعية الأميركية وفي الدوائر الفكرية والإعلامية في أميركا اللاتينية وإسبانيا. واعتمد المفكرُ الأميركي بشكلٍ مبالَغ فيه على الإحصائيات والأرقام لإضفاء المصداقية والصبغة العلمية على تحليلاته وتنبؤاته، إلاّ أنّ ذلك لم يَحُلْ دون أن تكون قدرتُه الإقناعيةُ ضعيفة. فمقاربته للتهديد الإسبانيكي غير واقعية، وهي أقرب إلى دعوة إنذارية وتحذيرية من كابوس يَجْثم على الهوية الوطنية الأميركية.[٥] بل وصل الأمر به إلى حدّ تخوّف ذهانيّ من التهديد الإسبانيكي، إذ يتصور هنتنغتون إمكانيةَ بلقنة الولايات المتحدة وتحقُّق كيبيك في الجنوب الغربي للولايات المتحدة، في حين أنّه لا توجد اليومَ أيةُ حركة سياسية وسط الأميركيين ذوي الأصل المكسيكي تطالب بالانفصال أو الاستقلال عن الولايات المتحدة.

ورغم إصرار هنتنغتون في التأكيد على أنّه ليس ضد الهجرة في حدّ ذاتها بل هو ضد المهاجرين الذين لا يندمجون، إلاّ أنّ أطروحته حول التهديد الإسبانيكي خَدَمَتْ مصالحَ المدافعين عن سياسة مكافحة الهجرة والحدّ

---

١ - Ibid, p. 243.

٢ - Ibid, p. 242.

٣ - Reconquista كلمة إسبانية تحيل على استرجاع المسيحيين الإسبان للجزيرة الإيبيرية من المسلمين في أواخر القرن الخامس عشر.

٤ - Ibid, p. 219.

٥ - Frédérick Douzet, "Le cauchemar hispanique de S. Huntington," **Hérodote**, n. 115, 2004.

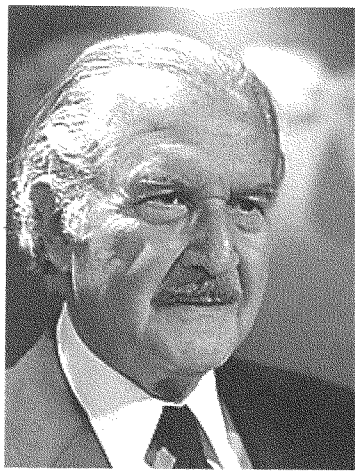

وصف كارلوس فوينتس هنتنغتون بأنّه «عنصريّ مقنّع» لأنّه يدعو إلى مواجهة «الخطر البنيّ» بعد التعبئة الأميركية ضدّ الخطر الأسود والأصفر والأحمر!

منها، واستغلّ البعضُ كتابَه للدعوة إلى تعبئة وطنية شاملة ضد المهاجرين غير الشرعيين. وبشكل غير مباشر فإنّ المؤلّف يكرّس ويَمْنح المصداقيةَ لطروحات المحافظين الجدد واليمين المتطرف، سواء في الولايات المتحدة أو أوروبا، والتي تقوم على العداء للأجانب والاعتزاز بسموّ الثقافة البيضاء الآرية والأوروبية على باقي الثقافات الأخرى.

لكلّ هذا اتُّهِمَ هنتنغتون بالعنصرية والشوفينية والديماغوجية وكراهية الأجانب، وبأنّه أصبح ناطقًا رسميّاً باسم البيض الأنغلوساكسون البروتستانت، ووَصَفَه الكاتب المكسيكي كارلوس فوينتيس بـ «العنصري المقنّع.» فبعد التعبئة الوطنية الأميركية ضد الخطر الهندي والخطر الأسود والخطر الأصفر والخطر الأحمر، جاء هنتنغتون ليدعو إلى مواجهة جديدة ضد الخطر البنّي[1] El peligro Moreno. وفي هذا الاتجاه يرى آلان وولف، أحدُ كبار روّاد علم اجتماع الأديان في الولايات المتحدة، أنّ هنتنغتون هو نسخةٌ من پات بيوكانان؛[2] فهو يعبّر عن توجّهات شعبوية محافظة تجعله لا يختلف كثيرًا في أفكاره عن خطابات هذا السياسي الأميركي المحافظ.[3]

ويعتقد المفكّر والمحلّل السياسي المكسيكي خيسوس ماركين، في تعليقه على أطروحة «الخطر الإسبانيكي،» أنّ كتابات هنتنغتون تَحْمل دائمًا نفحةً تحذيريةً مبالغًا فيها، وذلك حتى يَجْذب إليه انتباهَ الأوساط الأكاديمية ويثيرَ الخوفَ والقلق وسط المواطنين الأميركيين العاديين. ولهذا يلقّبه بـ «ستيفن كينغ[4] عِلْم السياسة» في الولايات المتحدة.[5]

ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ اعتقاد هنتنغتون بوجود ثقافة أميركية بروتستانتية متماسكة هو أمر لا يشاركه فيه أغلبيةُ المؤرخين، الذين يؤكّدون على وجود تناقضات وانقسامات **داخل** هذه الثقافة، سواء في الماضي أو الحاضر. بل ليس هناك عمقٌ تاريخيٌّ متينٌ للولايات المتحدة حتى يُمْكن الحديثُ عن أصول ثقافية ودينية متجذّرة في التاريخ. ويوضح آلان وولف أنّ مسألة سيادة ثقافة أنغلوپروتستانية منسجمة في الولايات المتحدة مجردُ وهم؛ فثمة اختلافات وتوتّرات عديدة بين الكنائس الكالڤينية، والمشيخيّين السكوتلانديين، والطهرانيين الإنجليز والكاثوليك بميرلاند، والمعمدانيين في رود آيلاند، والصاحبيين Quakers بپنسيلڤانيا... والواقع أنّ الهوية الأميركية هوية منفتحة متعددة يَصْعب اختزالُها في هوية واحدة، لأنّها نتاجُ مزيجٍ وتفاعلٍ عميق وحيويّ بين تواريخ متباينة وثقافات مختلفة وقيم متعددة.

سؤال الهوية

بشكل عامّ ثمة مقاربتان ممكنتان نسبيّاً لتحديد مفهوم الهوية الثقافية.

المقاربة **الأولى** هي التي يؤمن بها هنتنغتون، وتتّسم بالانغلاق والضيق

---

١ ـ Carlos Fuentes, "El racista enmascarado," **El Pais**, marzo 2004.

٢ ـ پاتريك بيوكانان أحد رموز المحافظين الجدد، عمل سابقًا مساعدًا للرئيس نيكسون وريغان. يدافع عن سياسة انعزالية لأميركا، وتتميّز خطاباتُه بالشعبوية والدفاع الشوفيني عن المصالح القومية الأميركية. ينتمي إلى الحزب الجمهوري، وترشّحَ مستقلاً للانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٠، ويدير مجلة **أميركا المحافظة**.

٣ ـ Alan Wolfe, "Native Son, S. Huntington Defends the Homeland," **Foreign Affairs**, May/June 2004.

٤ ـ Stephen King هو الروائي الأميركي الأكثر شهرة وشعبية، والمتخصّص في روايات الرعب.

٥ ـ **La Cronica**, 22 Septembre 2004.

ينبغي إبداعُ فكر ديناميكي قادر على التفكير في وحدة المتعدِّد وتعدُّد ما هو موحَّد

والمثالية. فهي تؤْمن بصفاءِ الثقافات وعزلتِها واكتفائها الذاتي، باعتبار أنّ لها ماهيةً خالصةً ثابتة. وبهذا تصبح الهويةِ الثقافية حقيقةً نهائيةً تشكّل روحًا وجوهرًا استعلائيّاً.

أما المقاربة **الثانية** فتنطلق من مفهوم تاريخي مفتوح يتعامل مع الهوية كصيرورةٍ وإنشاءٍ مستمرّيْن لانهائيّيْن، بحيث تتشكّل بارتباط مع تحولات الزمن والمكان وتتفاعل وتتداخل مع باقي الهويات الأخرى.

ويَعْتبر إدوارد سعيد أنّ هنتنغتون هو مجرد «إيديولوجي يحاول أن يجعل من 'الحضارات' و 'الهويات' ما ليست عليه، أيْ كياناتٍ مغلقةً، مبهمةً، مفْرَغةً من مختلف التيارات والتيارات المضادة التي تحرّك التاريخَ الإنساني منذ عدة قرون والتي سَمَحتْ ليس فقط باحتواء الحروب الدينية والتوسع الإمبريالي، بل جعلت التاريخَ أيضًا تاريخًا للتبادل والتقاسم والالتقاء الثريّ.»[1]

ويوضح الفيلسوف تشارلز تايلور أنّ مفهوم الهوية الثابتة المتماسكة أصبح متجاوَزًا:

«سابقًا كانت الهوية محدَّدةً وثابتةً. حاليّاً أصبح الأفرادُ والجماعاتُ مطالبين، بفعل الظروف التي تغيرتْ، بأن يعيدوا تعريفَ هوياتهم. وكلّ هوية جديدة تكون غالبًا في وضعية متدفقة وغير ثابتة ولا ترضي الجميع... لهذا فإنّ عالم الهوية غير المستقرة يجعل من الاعتراف المتبادل الرهانَ الأساسيَّ والأوليّ. وهذا هو قَدَرُنا في الوقت الحاضر، ويمكن أن يكون كذلك حتى في المستقبل.»[2]

وفي هذا الإطار أيضًا يعتقد أمين معلوف أنّ الهوية مفهوم معقّد، لا معطًى ثابت، بل تتشكّل وتتحوّل باستمرار. والعولمة المتسارعة والتحولات الجذرية التي يعيشها العالم خَلَقتْ قلقًا وجوديّاً قَوّى من الحاجة إلى الهوية. ولهذا يجب التفكيرُ بشكل مستعجل في مفهوم جديدٍ للهوية، وفي مقاربةٍ جديدةٍ للديناميات الهوياتية للخروج من مأزق الخيار الصعب: بين التأكيد المهووس على الهوية، وفقدان أيّ إحساس بها.[3]

لهذا كلّه، ينبغي إبداعُ فكر ديناميكي قادر على التفكير في وحدة المتعدِّد، وتعدُّدِ ما هو موحَّد: ذلك أنّه عادةً عند رؤية الوحدة تكون هناك إرادةٌ لتأحيد كل شيء ويتم تجاهلُ التنوع، وعندما يكون هناك تعددٌ يتمّ استبعاد أيّ وحدة وتجانس. ولعلّ أهم نقطة إيجابية لكتاب هنتنغتون **من نحن؟** هي أنّه يستفزّ كلَّ فرد وكلَّ مجتمع إلى طرح تساؤلات حول ماهية وحدود هويتهما.

ونحن في العالم العربي والإسلامي معنيون اليوم بشكل مباشر، وأكثر من أيّ وقت مضى، بطرحٍ شاملٍ وعميقٍ لسؤال الهوية على ضوء التحولات العميقة التي يعيشها العالم. وكلما كان إدراكُنا للهوية أكثرَ وعيًا ووضوحًا، كان تفاعلُنا مع الحاضر ومع العالم أكثرَ فعاليةً وقوة.

إنّ الهوية لا يُمْكن حمايتُها بالرجوع إلى «الأصول» الثقافية أو بالانغلاق على الذات، بل بالفعل والإبداع لإثرائها والإسهام في بناء العالم. ولا بد من خلق توازن بين الحفاظ على الهوية والتواصل مع الآخر: فذلك هو السبيل لتجنُّب الصدام الثقافي، سواء داخل المجتمعات أو في ما بين مختلف الثقافات الإنسانية.

وجدة

---

١ - Edward Said, "Le choc de l'ignorance," **Le Monde,** 27/10/2001, p. 18.

٢ - Charles Taylor, (entretien), **Le Monde**, 15 mai 1995, p.12.

٣ - Amin Maalouf, **Les identités meurtrières**, Grasset, Paris, 1999, p. 125 et 133.